« الأرض العربية والدعوة الإسلامية »

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

« نعم سوف أظل عربيًا .

بُنىّ : العروبة ليست مجرد علاقة سياسية ، إنها ليست لغة تطلق فى القرن العشرين للتشبه بذلك الإطار الفكرى - الذى سيطر على عالم التطور الغربى - الذى عرفته الإنسانية الأوربية خلال القرن الماضى . **هنا نلمس أول أخطاء مفكرينا فكلمات القومية والعلمانية والديمقراطية مفاهيم استقبلناها لنرددها كالببغاء ، ولم يكن ذلك إلا تعبيرًا عن عملية التشويه الفكرى الذى عاشته أمتنا خلال قرابة قرن كامل من الزمان .**

نحن اليوم نعيش بداية عصر النهضة الحقيقية ، والتى تعنى العودة إلى أصولنا[1] لنستقى منها المفاهيم والمدركات ، ومن خلالها نسترجع الماضى لنعيشه ، بلغة واقع القرن الواحد والعشرين .

إنها أمة لا تاريخ لها لا مستقبل لها .

نحن الأمة المختارة بقيمنا وتقاليدنا وتاريخنا ، وعلينا أن نعى معنى ذلك جيدًا ، إن هذا يعنى مجموعة من الحقائق يعنى أولاً أن واقعنا متميز ، وأن الكلمات والتعريفات التى نستخدمها فى التعبير عن ذلك الواقع لها طباعها المتميزة ودلالتها المستقلة ، ورحيقها الخاص بها ، والأمثلة عديدة . هل يعرف أولئك الذين يدفعون أمامنا بهذه المصطلحات ، وقد تصوروا أنهم حققوا ما لم يحققه الأوائل أن كلمة « الدعوة» -على سبيل المثال- لم تستطع جميع اللغات الأوربية أن تعبر عنها بذلك الواقع الذى عرفته تقاليدنا ، والذى نجده صريحًا واضحًا فى خطابات الرسول (محمد) ﷺ ومنذ قرابة

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، فرنسا العدد **96**، فرنسا فى **11** آذار-أبريل- **1985**، ص **26** وما بعدها .

(١) أى استرداد الهوية التى ضعنا يوم أن ضيعناها .

خمسة عشر قرنًا ، وهل يعرف هؤلاء السادة أن علماء تلك الحضارة الغربية بكل تفوقها وقدراتها ، لا يعرفون كيف يترجمون كلمة « الجهاد» ، فيستخدمون هذا اللفظ بأحرفهم اللاتينية ؟ وهل استطاع تفهمهم السياسى أن يؤصل - حتى اليوم - مفهوم « الأمة» ؟ مهلاً فلا أريد أن أغرقك فى كنوز العروبة السياسية ، وهذه ليست سوى بعض الأمثلة ، وسوف تجد الكثير خلال هذه الصفحات التى لا أخاطب فيها سوى العقل ، ولا أتحدث فيها إلا من منطلق العلم بوضعيته الصارمة !

العروبة يابنى هى علاقة حضارية ، أحد أبعادها هو الوجود السياسى ، وككل علاقة حضارية فإن ركائزها أربعة :

أولاً : الإنسان الذى منه تنبت وإليه تتجه تلك العلاقة الحضارية .

ثانيًا : الأرض التى حولها وفيها تكتمل العلاقة الحضارية .

ثالثاً : علاقة الانتماء الذى هو جوهر العلاقة الحضارية .

رابعًا : الوظيفة التى تعنى إنطلاق للعلاقة فى محيط الإنسانية ، وقد ألغى عنصرى الزمان والمكان .

هكذا العروبة عنصرها الأول : العربى ، وعنصرها الثانى : الأرض العربية . العروبة السياسية تصير العنصر الثالث ، ثم تأتى الوظيفة الحضارية فتكمل هذا الإطار من المرتكزات الفكرية .

وقفنا فى عملية المتابعة الزمنية لعملية التطور التاريخى لمفهوم الأرض العربية عند القرن الرابع الميلادى ، أو بعبارة أدق عند القرون الثلاثة السابقة على الدعوة المحمدية .

فى ذلك القرن انتقل مركز الثقل فى التطور العام للأرض العربية إلى منطقة الوسط . وخلال تلك الفترة التى تمتد إجمالاً منذ نهاية القرن الثالث الميلادى ، وحتى القرن السادس سوف تبرز ظاهرة جديدة لم تكن قد عرفتها بعد الإنسانية وهى صراع الأديان .

عودة لتاريخ الجزيرة العربية :

منذ البداية نسرع فنؤكد أن تلك الفكرة السائدة من أن الدعوة الإسلامية انطلقت فى أرض خاوية من مفاهيم التعامل مع القوى الغيبية ، إنما يعبر عن تشويه للحقيقة التاريخية فمنطقة الحجاز كانت تعانى تمزقًا فكريًا وصراعًا عقائديًا بعيد المدى ، وخلافات متشعبة حول التصور الفكرى للوجود الإلهى ، فجاء الإسلام ليحسم تلك الخلافات وليقدم تلك الصورة المتكاملة ، التى استطاعت أن تجسد التجاوب الحقيقى مع الضمير المزق الذى لم يكن بقدرته الذاتية قادر على أن يكتشف طريق المثالية ، وهكذا نفهم حقيقة الوظيفة التاريخية التى تتمركز حول مكة « أم القرى » فإذا كانت « أثينا» قد دفعت الإنسان لأن

يتجرد ويسعى بمنطقه الذاتى لاكتشاف حقيقة الوجود ومنطق الإنسانية ، وإذا كانت « روما» قد جاءت لترفض كل ما يمكن أن يتصل بالفلسفة والتعامل الميتافيزقى وتجعل من الحسيات مناط الإدراك الحقيقى للوجود الإنسانى ، وتحيل القوة إلى حق ، وتجعل من العنف والسيطرة محورًا للتطور البشرى ، فإن «مكة» لم تتردد فى أن تعلن بأن وظيفة الإنسان هى أن يؤدى وعن قناعة تلك المهمة التى عهدت بها إليه القيادة الربانية لتحقيق الارتقاء والعلو انعكاسًا واستمرارية لجوهر الوجود ، الذى هو الإله فى عظمته ، وقبل أن نصل إلى تحليل معنى هذه الوظيفة الحضارية فلنتابع كيف تلقفت « مكة » تلك الوظيفة وكيف أعدتها لها الأوضاع الجغرافية والتاريخية .

حول القرن الثالث الميلادى بدأ ما نسميه: الصراع فى سبيل الأرض العربية . ونقصد بذلك: الصراع الفكرى حول استيعاب تلك المنطقة فى دائرة النفوذ الدينى وفى ذلك القرن. وقد سبق أن رأينا كيف أنه مع هزيمة الملكة « زنوبيا» حدث انقراض للقدرة العربية ، سواء فى الشمال[1] حول الدويلات التابعة العربية أو فى الجنوب حول اليمن . هذا الانقراض أتاح للمنطقة الوسطى أن ترفع من هامتها ، لقد تعود أهل هذه المنطقة الوسطى خدمة الجانبين نقل التجارة من الجنوب إلى الشمال أو من الشمال إلى الجنوب ، خدمة القوافل ، ثم القيام بالعمليات الوسيطة المتعلقة فى بعض الأحيان بتحويل البضائع الواردة من الجنوب إلى الشمال ، أو من الشمال إلى الجنوب تبعًا لخصائص المستهلك ، ولكن وقد ضعف كل من الجنوب والشمال ، فقد بدأ رجل المنطقة الوسطى يتطلع إلى التعامل على قدم المساواة ، وساعد على ذلك اكتشاف الحصان ، لم يعد رجل هذه المنطقة مجرد تاجر وخادم إنما أضحى مقاتلاً ؛ بل وأضحى طرفًا خطيرًا فى التعامل ، يقف من رجل اليمن المتحضر ورجل الشمال المتسلط موقف المساواة والتحدى ، وعقب أن كان الجمل - أى سفينة الصحراء - قد استطاع أن يربط الجنوب بالشمال ، إذا بالحصان يخلق تقاليد القتال ، ويمهد للقدرة والصلاحية للغزو والاستيلاء .

ترى هل كان ذلك أحد أسباب انتقال بعض القبائل واستقرارها فى المناطق الشمالية ؟

كذلك يرتبط بهذا التحول الاجتماعى ، انهيار « سد مأرب» فى الجنوب الأمر الذى كان لابد وأن يقود لا فقط إلى إضعاف المنطقة الجنوبية ؛ بل أيضًا يقود إلى حركة تنقل من الجنوب إلى الشمال ، الأمر الذى دفع بعملية تعريب قوية - ودمج فكرية عميقة المدى - بين الجزئين من أجزاء شبه الجزيرة .

---

(1) راجع : « أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ» ، جزيرة العرب » ج 1 ، ج2 ، د. جمال عبد الهادى مسعود ، و د. وفاء محمد رفعت ، دار الوفاء - المنصورة .

الصدام بين الأديان :

على أن المتغير الأساسى الذى فرض الصراع الفكرى هو أن هذه المنطقة تحولت إلى ميدان صدام بين الأديان ، بدأ ذلك الصدام كنتيجة مباشرة لهدم المعبد ، وغزو الحركات الكاثوليكية ، وهو أمر يعود إلى نهاية القرن الأول عقب الميلاد فهدم المعبد فرض على اليهود الهجرة إلى خارج فلسطين ، وكان من الطبعى أن تتجه تلك الهجرة إلى وسط شبه الجزيرة العربية ففى القرن الثالث نجد اليهودية متغلغلة وقوية فى جميع أجزاء شبه الجزيرة ، وعلى وجه الخصوص فى بعض المناطق كاليمن ويثرب التى سوف تصير فيما بعد مدينة رسول الله ﷺ وعندما أضحت الامبراطورية الرومانية دولة كاثوليكية ، فقد كان من الطبعى أن يبدأ الصدام بين الديانتين ، وحول العهد القديم[1] من جانب ، والعهد الجديد[2] من جانب آخر ؛ وإذا كانت اليهودية قد وجدت مرتعًا فى «اليمن» بسبب العداوة التقليدية بين تلك المنطقة وكلاً من الامبراطوريتين البيزنطية من جانب والحبشية من جانب آخر ، فإنه من الطبعى أيضًا أن هذه الامبراطوريات المسيحية لا بد وأن تسعى إلى أن تُنَازل خصومها فى عقر دارهم .

الحقائق التاريخية لا تزال غامضة ، ترى هل غزو الرومان لشبه الجزيرة العربية - الذى انتهى بالفشل - وهل غزو « الحبشة » أيضًا لنفس تلك المناطق والذى تحدثنا عنه الوثائق المقدسة بالكثير من التفاصيل ، يعود أيضًا إلى ذلك الصراع الدينى؟[3] على أن الصراع الفكرى بهذا المعنى ، لم يقتصر على الصدام بعيد المدى متعدد المظاهر ، بين اليهودية والكاثوليكية ، بل ارتبط به أيضًا غزو من نوع آخر ، أتت به الوثنية الفارسية ، بما لها من تصورات دينية مختلفة ومتباينة .

لا نريد أن نتطرق إلى التفاصيل التاريخية ، فليس هذا موضعها ، ولكن الأمر الذى لا شك فيه أنه خلال القرن الرابع الميلادى كان هناك إيناع الكاثوليكية . التى تحدثنا بخصوصها الوثائق عن مهمة ضخمة قام بها القس «تيوفيلوس أندوس » حيث وجدت كنائس عديدة فى كل من « ظفار وعدن » دون الحديث عن مدينة «نجران»[4] الكاثوليكية .

---

(1) العهد القديم : هو التوراة وما تحتوى عليه من أسفار أشهرها [التكوين ، الخروج ، اللاويين، العدد ، التثنية، يشوع ، وغيرها . . .] .

(2) العهد الجديد : هو الأناجيل الأربعة [متى ، مرقس ، لوقا ، يوحنا] أعمال الرسل ، الرسائل .

(3) إنه صراع على مناطق النفوذ ، الموقع الاستراتيجى ، الأرض والثروات ، وأسواق تصريف المنتجات . . . إنه صراع الطواغيت الذين يتسترون بستار الدين أى أن الدين كان مطية لذلك الصراع .

(4) أصحاب الأخدود . . . أهل نجران كانوا مسلمين موحدين ، راجع كتاب « أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، جزيرة العرب » د. جمال عبد الهادى مسعود ، د. وفاء محمد رفعت ، دار الوفاء - المنصورة - تفسير سورة البروج فى تفسير القرآن العظيم .

هذا الإيناع ظل فى تزايد حتى نصل إلى نهاية القرن السادس الهجرى فنعاصر المذابح المشهورة التى حاولت استئصال المسيحيين من تلك المدينة . فى القرن السادس الميلادى ارتفعت الكاثوليكية إلى قمتها من القديس « حارس بن كعب » ومع كنيسة تلك المدينة التى تعبر عنها النصوص باصطلاح «كنيسة نجران» بل إن هذه النصوص تذكرنا بحملة صليبية سابقة على الإسلام قادها نجاشى الحبشة ، وهنا علينا أن نلحظ أن المنطقة عرفت صراعًا دينيًا بين مفهومين للمسيحية ، مسيحية عربية وأخرى شرقية .

اليهودية استقرت فى اليمن - كنتيجة للعداوة التلقيدية بين اليمن والحبشة - ولكنها أيضًا أقامت نظامًا يكاد يكون نظامًا سياسيًا متكاملاً فى مدينة « يثرب » ولم يتردد اليهود فى العمل على نشر دينهم فى مختلف أجزاء شبه الجزيرة ، على أن الذى يعنينا أن نلاحظه - بذلك الخصوص- هو أن اليهودية نقلت معها لا فقط الفلسفة اليونانية ، بل وكذلك تقاليد الفكر السياسى والحضارة الشرقية كما صاغتها مدرسة الإسكندرية ، وهكذا نلحظ خلال القرنين الرابع والخامس انتشارًا وتأثيرًا واضحًا فى اللغة العربية ، وفى التصورات والعقائد وتعاليم التوراة وما جاء فيها أيضًا من أساطير وخرافات ، والواقع أن شبه الجزيرة العربية - وبصفة خاصة فى القسم الأوسط - عرفت منذ النصف الثانى من القرن السادس الميلادى حركة صراع فكرى عميقة المدى ، مهدت للدعوة الإسلامية ، وخلقت الإطار الفكرى من التمزقات والتساؤلات التى مهدت لاستقبال وإيناع تلك الدعوة .

والخلاصة أنه بنهاية القرن السادس الميلادى ، فإن عالمًا جديدًا سوف يتمركز حول المنطقة الداخلية لشبه الجزيرة العربية ، عالم تتحكم فيه القدرة العربية الأصيلة بمعنى الإدراك البدوى فى تقاليده النقية ، فعقب الثورة التجارية التى فرضتها « اليمن» ، ثم الثورة الاستراتيجية التى قادت إليها إمارات الشمال ، نعيش مع حركة فكرية ضخمة فى أرض الحجاز هى التى مهدت وقدمت للدعوة الإسلامية ، إنها ثورة ثقافية تدور حول أبعاد ثلاثة كل منها يكمل الآخر :

أولاً : الوحدة السياسية .

ثانيًا : تدعيم القيم .

ثالثًا : نشر مفاهيم الرفاهية فى التعبيرات اللغوية .

أول عناصر هذه الثورة الثقافية ، هو مفهوم الوحدة ، أو بعبارة أدق الشعور بأن منطقة شبه الجزيرة ، رغم تعدد عناصرها ، وتباين قبائلها ، تكون حقيقة واحدة ، على الأقل من النواحى الثقافية والفكرية ، هذا المتغير المعنوى هو الذى مهد لقيام الدولة القومية العربية ، والقومية فى آن واحد عقب أن تمكنت المفاهيم الإسلامية من خلق الإدراك بالوظيفة

الحضارية وبصفة خاصة خلال العصر الأموى .

العنصر الثانى : هو نظام القيم ، نظام تسوده مفاهيم المروءة وشهامة الفروسية ، نظام تسوده قيم البداوة فى معناها النقى ، سوف نرى فيما بعد أن البدوى يمتاز بعناصر معينة - من حيث التعامل مع الآخرين - يسيطر عليها مفهوم التناقض .

يأتى **العنصر الثالث** فيكمل هذا الإطار : اللغة وعناصر التعبير اللفظى حيث برع العربى فى كل ما له صلة بفنون الأدب اللفظى ، حتى إن كثيرًا من علماء التحليل النفسى حيث جعل من هذه الناحية أحد عناصر الطابع القومى العربى أن كلمة العربى فى أصلها تعنى الفصاحة ، والعربى برع فى هذه الناحية حتى أنه يكاد يقدم نموذجًا متميزًا فى التاريخ البشرى للقدرة على التعامل الأدبى ، المعلقات السبع هى عالم مستقل بذاته من حيث القدرة الفنية ، الواقع أن العربى تعود الفصاحة والارتجال فى نموذج متميز فرض نفسه على اللغة العربية ذاتها ، حتى أننا ليتملكنا الإعجاب من الثراء الذى تميز به معجم اللغة القديمة ولعل هذا يفسر كيف أن أداة القدرة الأدبية فى المجتمع العربى قبل الإسلام هو الشعر ، وكيف كان ميلاد الشاعر فى المجتمع الجاهلى يوم تحتفل به القبيلة ، الشاعر فى الجاهلية ، هو العالم وهو موضع الفخر من جانب المجتمع ، وهو أداة القبيلة للفخر وللتنافس .

العروبة ..... فالإسلام :

على أن هذه الثورة الثقافية لا يجوز أن تجعلنا ننسى خصائص الوجود السياسى وكيف تفاعل مع ذلك التطور الثقافى ، لتحديد ملامح المجتمع العربى قبل الإسلام ، فالعلاقات التجارية بين الجنوب والشمال فرضت على مدن المنطقة طبيعة متميزة تطرح بدورها العديد من التساؤلات ، فالمجتمعات القديمة - وحتى اليوم - عرفت أساسًا نوعين من المدن : المدن الإدارية والمدن الصناعية ، الأولى حيث يوجد الحاكم وأعوانه ، وحيث المدينة تنشأ فى قلب المجتمع الكلى حيث تلتقى طرق المواصلات ، والثانية تقع بجوار الثروة الطبيعية من مناجم أو ما فى حكمها ؛ ولكن الاقتصار على الخدمات - وبصفة خاصة الخدمات التى هى فى حكم الخدمات السياحية- لم تعرفها المجتمعات القديمة ، بل ولم تعرفها المجتمعات الحديثة إلا منذ فترة قصيرة ، وبرزت بشكل واضح فى الأعوام الأخيرة ، وفى الدولة اليهودية مدينة للخدمات تصير ملتقى للقيام بالأعمال التجارية والمصرفية أو هناك ما فى حكمها وما يرتبط بذلك من لقاءات سياحية ، هذا هو المفهوم الذى يسيطر على التصور الإسرائيلى اليوم لكل ما له صلة بالمستوطنات .

ولو عدنا إلى تقاليد منطقة الحجاز - خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين - لوجدناها تذكرنا بهذا النموذج للتعامل، فـ « مكة » وما حولها من مدن ، وهى فى الواقع

مدينة القوافل ، ومعنى ذلك أنها نقطة تستقبل التجارة الآتية من الجنوب والمتجهة إلى الشمال ، أو الآتية من الشمال والمتجهة إلى الجنوب ، حيث تتوقف القوافل استعدادًا للقسم الآخر من الرحلة ، وحيث يتم إخضاع التجارة إلى نوع من التعامل لإعدادها للمستهلك الذى سوف تصب فى يديه تلك السلع فى نهاية المطاف وهكذا وصفت « مكة » بأنها جمهورية تجارية ، وكان من الطبعى كنتيجة مباشرة لهذا التعامل بخصائصه السابقة ، أن يحدث لا فقط ازدهارًا فى التبادل التجارى ؛ بل وكذلك تفاعلاً فكريًا أضفى على المنطقة نوعًا من القدسية ، بل ويمكن القول بأن هذا الإطار للتطور كان لابد وأن يزيد من تقوية العناصر الوجدانية لمفهوم الوحدة العربية تطورات مختلفة جميعها أعدت لاختيار عاصمة أرض الحجاز لأن تكون مبعث الشعلة الإسلامية .

ما هى النتائج التى نستطيع صياغتها فى ضوء هذه المتابعة التاريخية **للتعريف بالأرض العربية قبل الدعوة الإسلامية؟**

أولاً : العروبة - كظاهرة قومية - أقدم من الإسلام[1] ، وارتباطها بالدين الإسلامى ليس إلا تعبيرًا عن مرحلة معينة ، تعقبها مرحلة ارتباط بالحضارة الإسلامية ، وهى جميعها حقائق فى حاجة إلى تحليل ودراسة متأنية .

ثانيًا : العربى يعكس ظاهرة أكثر اتساعًا من الأرض العربية ، والأرض العربية ليست مجرد شبه الجزيرة العربية ، هذه العلاقات تختلفت فى دوائرها المتعددة تبعًا للمراحل التاريخية المختلفة ، ويجب أن نعالجها أيضًا فى بعدها المعاصر ، من منطلق مفاهيم تختلف أو تتنوع وتستقل عن دلالة هذه العلاقة التاريخية . وكما أن العربى يجب أن يُعرف بوضوح فى عالمنا المعاصر ، فكذلك الأرض العربية يجب أن تُحدد وبدقة فى عالم الصراع بين العمالقة الذى تعيشه العلاقات الدولية فى نهاية القرن العشرين .

ثالثًا : العلاقة بين « مصر» وأرض العروبة أكثر قِدمًا من الغزو الذى تواصفنا على جعله مبدأ تلك الصلة ، وهو فتح مصر من جانب الجيوش الإسلامية بقيادة عمرو بن العاص . « زنوبيا» الملكة العربية حكمت « مصر » حيث مكنت الحضارة العربية من السيادة خلال قرابة ربع قرن . الملكة « كليوباترا» عندما فكرت فى الهرب كان تخطيطها أن تلجأ

---

(1) حقيقة هذا الكلام يحتاج لإيضاح ، ونحن نرى - والله تعالى أعلم - أن الإسلام لا نقول قديم بمعنى كلمة (قديم وجديد) ولكن الإسلام افترضه الله - عز وجل - على البشرية منذ آدم - عليه السلام - فآدم نبى مسلم ، جاء بعده نوح - عليه السلام - أبو البشرية الثانى نبى مسلم وهكذا إبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فكيف تكون العروبة أقدم من الإسلام ؟

أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ « دين الله فى الأرض وفى السماء » . د . وفاء رفعت ، دار الوفاء .

إلى شبه الجزيرة العربية ، ماذا يعنى ذلك ؟ التاريخ يثبت أن من **تولى استخراج واستغلال مناجم الذهب فى شبه الجزيرة كانوا فراعنة « مصر »** . **علاقة التوحيد نبتت فى مصر وانتقلت إلى شبه الجزيرة قبل نزول الأديان واختيار شبه الجزيرة لقيادة الإنسانية المعنوية** .

رابعًا : الصراع الدولى حول الأرض العربية - بين القوى العظمى- ليس حديثًا ، ولا يرتبط فقط بالعصور الوسطى ؛ بل عرفته أيضًا العصور القديمة فى نموذج يكاد يعبر عن الواقع المعاصر ، حيث كان الفرس هم قوى الشرق وقياصرة الرومان يمثلون أجداد الحضارة الغربية .

خامسًا : الحضارة العربية أينعت وقدمت نماذج للتطور المعنوى والفكرى جديرة بالاهتمام أيضًا قبل الدعوة الإسلامية .

وهنا يصير التساؤل المشروع الذى يفرض نفسه : **أين الإسلام من العروبة ؟ وأين العروبة من الإسلام ؟** كيف استطاع كلٌ منهما أن يقدم للآخر ما ينقصه ليخلق ذلك المزيج الذى استطاع أن يتنامى ليزلزل جميع الممالك من حوله ، ويخلق أعظم نماذج **الوجود السياسى فى تاريخ الإنسانية** ؟ وللحديث بقية » .

obeikandl.com